مكافحة الظلم والاستبداد في الشعر السوداني الحديث (الهادي آدم ، محمد الفيتوري ، عبدالقادر الكتيابي ، نموذجاً)

قاسم خالدى نجاد
طالب دكتوراه في جامعة لورستان
khalediqasem@yahoo.com
الأستاذ الدكتور
على نظرى (الكاتب المسئول)
alinazary٢٠٠٢@gmail.com
الأستاذ المشارك الدكتور
سيد محمود ميرزايى الحسينى
mahmudalhosaini@gmail .com
جمهورية إيران الإسلامية
جامعة لورستان – كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الملخص:
السودان من البلدان العربية التي واجهت في تاريخها المعاصر الكثير من الأحداث التي تركت بصمتها على الأدب و لاسيما الشعر منه، و من هذه الأحداث، الظلم و الاستبداد الذي مارسه الحكام في مختلف العصور و الفترات. وقد دعا الشعراء السودانيون، الشعوب العربية الى الثورة والانتفاضة على الظلم و الجور و استعادة الحرية المفقودة من خلال التضحية بالدم ، و قدموا نماذج يقتدي بها من أجل الخلاص من الاستبداد ، و من أهم تلك النماذج، الثورة على نهج الأنبياء (عليهم السلام) ، و ثورة الإمام الخميني(ره)، و قد دعوا الى استلهام الدروس و العبر من الثورة الإسلامية في إيران و الاقتداء بها بغية التخلص من الجور و الطغيان.

الكلمات الدليلة : الاستبداد – الظلم – الحرية – الشعر السوداني .

المقدمة

الشعراء في مختلف البلدان و الأزمان، طالما تحدّثوا في أشعارهم عن الظلم و الاستبداد الذي يعانونه أو تعانيه شعوبهم أو الإنسانية جمعاء، لأنه قلّما يوجد بلد لم

يعان في فترة من فترات تاريخه ، على أقل تقدير، من الظلم و الاستبداد، و قلّما يوجد شاعر لم يتطرق في شعره الى الظلم و الاستبداد، بل ربما يعدّ الشعراء من أولئك الذين تعرّضوا أكثر من غيرهم، لبطش الطغاة و المستبدين، لأن الشعراء هم اللسان الناطق باسم الشعب و معاناته و طالما أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن المظلوم و الوقوف بوجه الظالم. و لذلك تجدهم يتعرضون لأنواع المضايقات من قبل الحكام المستبدين، و لذلك أصبح مقارعة الظلم و الاستبداد إحدي الاتجاهات الشعرية لكثير من الشعراء بما فيهم الشعراء السودانيون في العصر الحديث الذين عالجوا في أشعارهم هذه القضية من مختلف الزوايا. و لما لهذه القضية من الأهمية في حياة الشعوب، ارتأت هذه الدراسة الإجابة على سؤال أساسي و هو: ما هي الحلول التي قدمها الشعراء السودانيون في العصر الحديث للتخلص من الاستبداد الحاكم في البلدان العربية ؟ و ذلك عبر منهج وصفي- تحليلي.

و من الدراسات التي أجريت في هذا الصدد: أولا: مقال لكاتبه: عروه على موسي تحت عنوان «عبدالقادر الكتيابي شاعر تمقته الأنظمة السياسية» (موقع الراكوبة) تناول فيه الكاتب النصوص التي هاجم من خلالها الشاعر الأنظمة السياسية المستبدة. ثانياً:رسالة ماجستيرتحت عنوان:«حوار المذهب و الثورة في شعر تميم البرغوثي» (٢٠١٥ ، جامعة بوضياف، الجزائر) تناولت فيه الكاتبة :خالصة رواق، نقد و دراسة قصيدة «نثر موزون وشعر منثور في حديث الكساء و وحدة الأمة» للشاعر البرغوثي، و التي تدعو الى الثورة ضد المحتل من أجل توحيد الأمة العربية و الى نبذ الطائفية و المذهبية، إلا أنه لا توجد دراسة جامعة تعني بالاتجاهات الشعرية في الشعر السوداني الحديث، الأمر الذي دفعني الى القيام بهذه المهمة.

و قد اتخذت هذه الدراسة أشعار ثلاثة من الشعراء السودانيين في العصر الحديث كنموذج لها و هم:

الهادي آدم[١] (١٩٢٧- ٢٠٠٦)

محمد الفيتوري[٢](١٩٣٦- ٢٠١٥)

عبدالقادر الكتيابي[٣](١٩٥٤)

مكافحة الظلم و الاستبداد في الشعر السوداني الحديث

١- الاستبداد و معاناته

للشعراء السودانيين مع الأنظمة المستبدة حكاية أخري، فمعاناتهم معها مضاعفة، فهم تارةً يعانون ما يعانية عامة الشعب من القمع و القهر و الظلم، و تارةً يتعرضون للمضايقات التي يتعرض لها الشعراء و المفكرين و أصحاب الرأي الآخر كي ينتهجوا النهج الذي رسمه لهم السلطان. و هذا ما قد بعث في قلب الشاعر منهم حزناً عميقاً حيث لا يستطيع البوح بما تكنّه نفسه من هموم و متاعب إلا من خلال الرموز و الأقنعة، وقد انعكس ذلك على قصائدهم حيث أضفي عليها طابعاً من الغموض.فالشاعر السوداني يشعر بالحزن والألم على عدم قدرته على تغيير الواقع المؤلم الذي يعانيه شعبه جراء الممارسات التي يقوم بها الحكام المستبدون، و لأن صوت الطغيان أصبح أعلى من صوت الشاعر:

«سرّ عذاب هذا الجيل في أكفان جلاديه   كيف نسيتَ أنك شاعر و القوم موتي

و مضيت تنحتُ تلكم الأوثان في شفتيك نحتا   وكأنّ من شربوا دماً و تقيأوه دماً و مقتا

ينسون أنك بعض الناس   و الطغيان أعلي منك صوتا»

(الفيتوري١٩٩٤:١٢٧)

ويعتبر الشاعر أن الظلم والطغيان خطأ يشارك فيه الجميع، الحاكم والمحكوم، فالحاكم يشارك بظلمه وبطشه، والمحكوم يشارك بركونه الى الظلم وسكوته عنه:

«يا لافتضاح السرّ كيف نسيت أن المخطئين من الرجال / هم الرجال المخطئون/ الجالسون على حطام عروشهم/ وأنا وأنت» (المصدر السابق)

و في مقطع آخر يؤكد الفيتوري أن ما يحصده الشعب من جراح و ألم ما هو إلا نتيجة لما زرعه في السابق، أي أن البيئة الاجتماعية و التربوية هي التي تنمّي الاستبداد في نفوس الأفراد منذ الصغر، و جميع أفراد المجتمع مسؤولون عما يزرعونه في نفوس الآخرين، و عليه ينبغي على المجتمع أن يزرع بذور الحب و

الإنسانية في النفوس و يتجنب زرع الحقد و الكراهية و الأنانية التي تعود على المجتمع بالويل و الثبور: «و كم حرثنا حقلنا/ بفأسنا الأعمي الأصم/ و كم حصدناه حصدنا/ بلي جنينا مل ء أيدينا/ جراحات و دم/ كأننا لما زرعناه/ بذرنا ألم » (الفيتوري: موقع الشعر)

و قد أشار الشعراء السودانيون الى الآثار المدمرة التي يتركها الاستبداد في المجتمع و منها:

١-١: الاستبداد و مقص الرقيب:

المقصود من «مقص الرقيب» تلك الرقابة الصارمة التي تمارسها الأجهزة الأمنية للأنظمة الاستبدادية على الشعراء و المفكرين و أصحاب الرأي الآخر و ما تفرضه على الشعراء من التعديل في نصوص أشعارهم و حذف ما يمكنه أن يمس السلطة الحاكمة و ما تمارسه من ظلم و فساد.و قد شكا الشعراء من هذه الظاهرة المؤلمة التي يضطر بعض الشعراء الى الاستسلام أمامها، و البعض الآخر يترك وطنه مهاجراً الى بلدان أخري يجد فيها أكثرحريةً و انفتاحاً، و منهم من يثور غاضباً و يرفع صرخته مدويةً بوجه الاستبداد.و قد صوّر هذه الحالة الشاعر السوداني عبدالقادر الكتيابي حيث ذكر في مقدمة قصيدة «علي كيفي» حكايةً، أظهر من خلالها المعاناة التي يعانيها الشعب من مقص الرقيب، حيث قال:« حكي أن تشكيلياً مرّ بلافتة سماك كتب عليها:«محلات السر لبيع السمك المشوي و المقلي و المحمر» فأقنع السماك أن يستغني عن عبارة« محلات بيع» لعدم جدواها ففعل ثمّ مرّ عليه بعدها و أقنعه بأنّ السمك عادةً يشوي أو يقلي أو يحمر و لا داعي لها في اللافتة فحذفها، ثمّ مرّ عليه بعدها و فهّمه أنّ كلمة السمك تحصيل حاصل بسبب الرائحة المنتشرة في الشارع فلم تبق على اللافتة إلا كلمة (السر) و هذا ما حدث لهذه القصيدة من المقصات...» إلا أن الشاعر الثائر لم يخضع لهذه الضغوط بل رفع صوته بوجه الظالم قائلا إنه يكتب « علي كيفه» و إنه لم يبايع بعد محمد(ﷺ) أحداً:

«علي كيفي/ أرقع جبتي أو لا أرقعها/ أطرزها من الالوب.. ألبسها على المقلوب/ أخلعها على كيفي/ أنا لم انتخب أحداً/ و ما بايعت بعد محمد رجلاً/ و

لا صفقت للزيف/ لماذا أعلنوا صوري؟/ لماذا صادروا سيفي؟/ أنا ما قلت شيئاً حتي الآن/ حتي الآن أسلك أضعف الإيمان» (الكتيابي٢٠٠٦: ٤٠)

و في قصيدة«صرخة المعول المرخص» يسرد الكتيابي، قصة أشعارة التي تسعي للحصول على ترخيص من الحكومة و ما عاناه الشاعر للحصول على ختم الترخيص الذي وصفه« بختم اللات» ربما للدلالة على أنّ هذه العملية إنما تعتبر ارتداداً الى الماضي و عودةً الى الجاهلية، بعد الحرية التي اكتسبها الإنسان المسلم في التعبير عن رأيه في ظل الدين الإسلامي الحنيف:

«بعد التسكع بين أعمدة المداخل و المخارج/ بعد إدمان الهزيمة/ ضربوا بختم اللات وجه قصاصتي/ مهروا ملف مقاطعي/ بنقوش إبهام الحكومة/ و غدوت موالاً مرخص» (الكتيابي٢٠٠٦: ١٨٧)

ثم يتحدث الشاعر، ساخراً، عن المطالب التي يتقدم بها الرقيب بغية تعديل النص، غير عابه بما يتركه هذا التعديل من إخلال بالمعني أو بالقواعد النحوية، فيقول:

«أصبحت من حقي أمارس لعبة التفكير بالألوان/في كل المحافل/ و أقول: لا/ للغث لا/ أو مثل نقاد الضرورة قد أجامل/ حتي و لو رُفع المضاف الىه للدور الأخير/و جُرّ بالرمضاء فاعل/ماذا يهم قراراتي؟/أو لست أستلم المقابل؟/فالنحو لا ولدي و لا بنتي و لا أنا سيبوية/ و الشعر لا ديني و لا وطني ولا رزقي عليه» (المصدر السابق)

ثم يأسف الشاعر و يشعر بالحزن لما يحدث من قمع و تضييق في زمن يوصف بزمن الحضارة و يأسف للموازين التي تحطمت فيه:

«أواه يا زمن الحضارة/ أواه يا زمن الرواسب و الغني/ و اللابكاره/ أرأيت كيف تحطم الميزان فيك؟» (نفس المصدر)

٢-١: السجن و الإعدام:

من الممارسات الأخري التي يمارسها المستبدون بحق شعوبهم و التي انعكست في الشعر السوداني الحديث،هي السجن و الإعدام بحق المعارضين و أصحاب الرأي

الآخر. فالبلدان التي تعاني من القهر و الاستبداد و انعدام الحرية و الديمقراطية، تجد لديها أكبر نسبة من المساجين و المعدومين لأسباب سياسية أو عقائدية، الأمر الذي يترك أثره السلبي على المجتمع،و بما أن الشاعر يعدّ نبض المجتمع و الناطق باسمه و المرآة التي تعكس واقعه، نجده يعكس هذه المعاناة في شعره، فهذا هو محمد الفيتوري يتحدث باسم صبي اختفي أبوه و لم يعرف عنه شيئاً فيقول:

«و أنت يا أبي/أ لن تعود لي قبل الشتاء؟/إنا جميعاً لم نزل نبكي/أنا و إخوتي و أمي/في الصباح و المساء/فعد لنا/كي لا يسمونا يتامي فقراء» (الفيتوري)

و الملاحظ في الأنظمة الاستبدادية أنها تقبض على أصحاب الرأي الآخر دون مبرر مقنع، بل فقط لأنهم يملكون رؤية أخري تتعارض مع الرؤية الحاكمة، و هذا ما يجعل المواطن يتساءل: لماذا؟

«كم مرة سألت كل الناس في حزن شديد/أبي بريء/فلماذا صفدوه في الحديد/فأطرقوا/كأنهم جميعاً سجناء» (المصدر السابق)

إن ما يشجع المستبد على استبداده هو الشعب الذي يخاف من المواجهة، الشعب الذي ترهبه السجون و المعتقلات، فيبقي رهين سجن كبير اسمه الوطن.ول م يكتف المستبدون بالسجن و الاعتقال بل إنهم يقدمون على إعدام كل من يقنطون من تغيير أفكاره و رؤيته و من إسكاته عن قول الحق، و الأهم من ذلك هو امتهان إنسانية الإنسان، فحتي طريقة الإعدام و التخلص من المعارضين لم تجرِ في أطرٍ قانونيةٍ وإنسانية، بل يلقون بجثة الإنسان المعارض دون أي مراعاة للجوانب الدينية أو الإنسانية:

«و ذات ليل طرقوا الباب و مرّوا داخلين/من أنتم؟/و ماذا تريدون/و ماذا تحملون/أما كفاكم أنهم وراء قضبان السجون/ لكنهم ألقوا الى قرب الجدار جثته/و حدقت في وجوه الذكريات الميتة/و جففت مدامعي دموع الآخرين» (نفس المصدر)

٣-١: انعدام العدل:

من الآثار التي يتركها الاستبداد في المجتمع، انعدام العدل و المساوة بين الأفراد، لأن المستبد يهتم بأعوانه و أنصاره و يهمل الآخرين الذين لا يوافقونه الرأي، فينعدم

العدل في المجتمع.و لذلك تري المستبد يخشي سيرة الأنبياء و الأوصياء التي تتصف بإقامة العدل و المساواة بين الناس و لأنها تبعث في النفوس الضعيفة، القوة و رباطة الجأش و تدفعهم للمطالبة بإقامة العدل، و في ذلك يقول الشاعر السوداني عبدالقادر الكتيابي مخاطباً الرسول الأكرم:

«أرضوا عدوك بل يخشون دائرةً/ بئس الملوك بريء منهم الحرم/ يخشون سيرتك الغرّاء لو تُليت/ بين الضعاف سري في ضعفهم شمم»(الكتيابي٢٠٠٦:٢٨٣)

و يبدو أن الشاعر، و من خلال استخدام المفردتين القرآنيتين«يخشون، دائرة»، قد استلهم الآية ٥٢ من سورة المائدة﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ليدل بذلك على هؤلاء المستبدين في عصرنا الراهن إنما هم أمثال أصحاب القلوب المريضة في زمن النبي(ﷺ)، أولئك الذين كانوا يخشون أعداء الله أكثر من خشيتهم الله سبحانه و تعالى، و لذلك تراهم لا يخشون الله في خلقه و يمارسون أنواع الظلم والاضطهاد بحق المستضعفين من العباد.

و يبقي المستبدون على مدي التاريخ على شاكلة واحدة، لايتغيرون بتغير الزمان و لا المكان ، و تبقي ممارساتهم نفس الممارسات، و طقوسهم نفس الطقوس: بيارق، و بنادق، و حرائق، و مشانق:

«هي نفس أزمنة التماثيل التي هجرت متاحفها/ الفضاءات التي اتشحت بأمطار العصور/نفس البيارق و البنادق/ و الحرائق و المشانق/ وا لمزالق و الصخور» (الفيتوري١٩٩٤:٨٣)

و تبقي العدالة ضحية سيف القهر الذي يسلّطه المستبدون على رقاب الشعوب،فما دام هذا السيف مسلطاً على الرقاب، تبقي العدالة غائبة، مهما حاول الظالمون تزوير التاريخ و تزويقه:

«مادام سيف القهر فوق إرادة الإنسان/سوف تظل روح العدل هائمة/تسابق ظلها الثلجي/و التاريخ أوراق مزوقة/علي الحيطان/ و الدنيا تدور و لا تدور□ (المصدر السابق)

و في مقطع آخر يتقنع الفيتوري بقناع شخصية وهمية يطلق عليها «مسعود الحكيم» و ينصح من خلالها الحاكم المستبد قائلاً له إن الملك في أرجوحة هذا الكون العظيم لا يدوم، فكما ملك قبلك ملوك ، فسوف يأتي بعدك ملوك آخرون، و إن سعادتك لا تتأتي إلا من خلال إسعاد الناس، فهذا هو الزاد الذي لا يفني و الملك الذي لا يزول:

«و استرسل مسعود الحكيم/في حكاياه عن الأحياء و الموتي/و أبطال الأساطير/أيها الصاعد نحو الشمس/كم من صاعد قبلك/كم من صاعد بعدك/في أرجوحة الكون العظيم/فتعلم وتعلم/أن إشراقة أيامك في إشراقة الناس» (نفس المصدر)

و يتابع الشاعر على لسان«مسعود الحكيم» نصحه للمستبد فيقول له :

«إن القهر موت يسكن القاهر/و البغض رماد الروح/و الظلم عقيم» (المصدر السابق)

و في الختام يؤكد الشاعر أنه مهما استبد المستبدون فإن الله سبحانه و تعالى، في نهاية الأمر، سوف يقيم العدل على الأرض و بين الناس ، و ذلك ربما يكون إشارة الى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الأنبياء:١٠٥) و في الوقت ذاته إشارة الى العدالة التي سوف تتحقق على يد مهدي هذه الأمة، الأمر الذي يؤمن به جميع المسلمين بمختلف مذاهبهم:

«و تعلّم/أن عدل الله في الأرض مقيم/ و في الناس مقيم» (المصدر السابق)

٤-١: إثارة الحروب:

من المآسي التي يخلفها المستبدون في المجتمعات هي إثارة الحروب و النزاعات وما تتركة من دمار و مذابح و خسائر في الأرواح و الأموال. و التاريخ، قديمه و حديثه، خير شاهد على ما اقترفته أيدي الطغاة و المستبدين و الحروب التي كان من أهم اسبابها بذرة الاستبداد التي نمت في نفوس الطغاة و جعلتهم يتمنون بسط نفوذهم و الهيمنة على أكبر قدر ممكن من البلدان، و لا تهمهم الدماء التي تسيل في سبيل

تحقيق أمانيهم الشيطانية. و ذلك لم يخفَ على الشعراء في العصرالحديث الذين عانوا ويلات الحروب و لامسوها عن كثب:

«لقد عدنا من الحرب الى الحقل الى المصنع/لكي نحرث، كي نبذر، كي نحصد كي نجمع/لكي نبني للغير، لكي نطهو و لا نشبع/لكي نحلم بالفجر الذي من يدنا يسطع/لكي نصنع حرباً ضخمة أخري لكي نصنع/لقد عدنا الى الأكواخ، أكواخ أهالىنا/ فماذا أبصرت أعيننا غير مآسينا/ و غير الطلل الموجع نبكيه و يبكينا» (الفيتوري: موقع الشعر)

فالمواطن البسيط الذي يدفع به الطغاة الى الحرب لتحقيق أهدافهم التوسعية، واهمين إياه أنه يحارب من أجل غد أفضل و أنه سوف يعود مكللاً بالنصر و يعود الى وطن مزدهر يشارك في بناءه و صنعه من جديد؛ فهذا المواطن عندما يعود من الحرب ليشارك في البناء، يجد نفسه يعمل، من حيث لا يدري، من أجل الاستعداد لحرب ضخمة أخري يعدّ الطغاةُ العدةَ لشنّها ، و ما هذا المواطن إلا وقود هذه الحرب و الآلة التي يستخدمها الطغاة . فالطغاة يصنعون من أنفسهم قدوةً للناس و يوهمونهم بأنهم في طليعة أي جهد وطني و أنهم سوف يكونون، عند الشدائد و الحروب، في الصفوف الأولي و لكنهم يخدعون شعوبهم و يزجون بهم الى هوة الموت، بينما هم ينعمون في حياة هانئة هادئة و يغرقون في شهواتهم و لذاتهم:

«و قالوا .. قال رب السوط و القانون و القوه/سأمضي قبلكم.. إني لقطيعكم قدوه/و كنا مضينا وحدنا نحتضن الهوه/وظل السيد المعبود في رقدته الحلوه/و كانت كأسنا الموت/ و كانت كأسه الشهوة» (المصدر السابق)

و الطغاة يحاولون أن يجعلوا مواطنيهم على شاكلتهم و يشركونهم في بطشهم و إجرامهم. ففي الحروب التي يفتعلونها و التي يصبح المواطن العادي و قوداً لها، يضطر هذا المواطن الذي أصبح جندياً مشاركاً في الحرب، يضطر الى المشاركة في الهدم و القتل و التعذيب، إرضاءً لقادته و امتثالاً لأوامرهم:

«فماذا يبتغي الجلاد ماذا يبتغي منا؟/لقد سرنا كما شاء و عدنا لا كما شئنا/هدمنا وتهدمنا و عذبنا/ وعذبنا/و كم حلم سحقناه و كم مقبرة شدنا/و كم مرة متنا، و كم مرة عشنا» (المصدر السابق)

و في ختام قصيدته يلعن الشاعر تلك الأيادي التي تخلق البغض و الضغينة و يبارك الأيدي التي تسقي شجرة الحب و الأمان ، و الفأس التي تحطم جدار البطش و الطغيان:

«فلا بارك هذي اليد، لا باركها الرحمن/إذا لم تسق بالحب طمأنينة الحيران/إذا لم تك فأساً في جدار البطش و الطغيان» (نفس المصدر)

٢- الجري وراء الحكام

لا يخلو أي زمان أو مكان من أؤلئك الذين يلهثون وراء الطغاة و المستبدين، طمعاً في مال أو جاه ،و للشعراء دائماً مواقفهم من الجري وراء الحكام، فمنهم من يبغض ذلك و منهم من يستسيغ،أما الشعراء السودانيون فقد اتخذوا موقفاً سلبياً إزاء كل من يعاضد الحكام المستبدين بقول أو علم أو عمل.فهذا هو الشاعر الهادي آدم ينتقد العلماء الذين أصبحوا آلةً بيد الطغاة و الحكام المستبدين ليستخدمواعلمهم في صنع آلات الدمار والقتل و وسائل التعذيب أو وسائل التنصت و غيرها مما يحدّ من حرية الإنسان، و يعتبر هؤلاء العلماء قد تجردوا من إنسانيتهم و أصبحوا وحوشاً كاسرة تعمل تحت إمرة ساسة «بهم جنون الى نزف الدماء»:

«أمـا لـذوي المطـامع أن يكفـوا ... عـن الطغيـان أو عبـث الوليـد
ألا تـراهم و بهـم جنـون ... الى نقـض المواثـق و العهـود
إلام يجرعـون النـاس شـتي ... صنوف الرعـب و الخـوف الشـديد

....

و كيـف تلـومهم وبهـم جنـون ... الى نـزف الـدماء مـن الجلـود
أنسـي أن للعلمـاء نابـاً ... و ظفـراً تحـت خافقـة البنـود
فهـم عصـب السياسـة حـين صـانوا ... حماهـا بالـدخان و بالحديـد

أمــدوا الطــــامعين بكـــل ماضـــي　　شـــديد الفتـــك قصـــاف الرعـــود
فعـــاد العلــــم في يــــدهم شـــواظاً　　يبيــــد حضــــارة العهــــد التليــــد
يعيــد الكـــون حيـــث بـــدا رمـــاداً　　فمـــا مـــن مبـــدئ أو مـــن معيـــد»

(آدم،١٣٩٢: ٢٠)

ثم يتابع الشاعر أن العلماء الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الحكام و لتحقيق مآربهم الشيطانية، لو أنهم جنحوا الى السلم و استخدموا طاقاتهم و علمهم من أجل خدمة الإنسانية، لأصبح الناس يعيشون عيشاً رغداً:

«و لـــو جنحـــوا بعلمهـــم للســـلم　　لكـــان النـــاس في عـــيش رغيـــد
فمـــا ضــــرّهم لـــو ســـخروه　　لخـــير النـــاس و الجهـــد المفيـــد»

(المصدر السابق)

و قـد اقتـبس الشـاعر الألفـاظ القرآنيـة«جنحـوا، للسـلم» مـن الآيـة ٦١ سـورة الأنفـال﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ و ذلـك لتذكير العلماء بضرورة اتباع هذه الدعوة الإلهية في اتباع المنهج السلمي وتكريس علمهم و عملهم لخدمة خير الإنسانية وصلاحها وليس تدميرها و زوالها.

ثم ينصح العلماء بصيانة علمهم عن النزاعات الشيطانية التي تشوه انجازاتهم العلمية، و يري أن العلم عندما يصبح في خدمة الآلة الحربية و أداةً بيد المستبدين، فهو في تلك الحالة يعود بالإنسانية الى عصر التوحش و البربرية، و يصنع من الحكام طغاةً على غرار«نيرون» ؛و يجعل شريعة الغاب تسود المجتمع الإنساني:

«فصـونوا العلـم عـن نزعـات طـيش　　تشـــوه مـــن كفـــاحكم المجيـــد
إذا مـــا العلـــم أمســـي و هـــو حـــرب　　علـــى الإنســـان في العهـــد الجديـــد
فقـــل يـــا عهـــد نـــيرون ســـلاماً　　و قـــل لشـــريعة الغـــاب عـــودي»

(نفس المصدر)

أما الشاعر السوداني محمد الفيتوري أشار الى شعراء السلاطين الذين وصفهم بالطحالب الملتصقة بالحجر، للدلالة على وضاعتهم أو لالتصاقهم بحجر ليس له إحساس و لا يقدّر ما يكتب عليه،سوي أنه يستغله لخلق كبرياء مزيفة، ثم يعبّر عن ألمه عندما يشاهد الشعراء«الراقصين على الذهب» فيقول:

«فوق الحرير الدمشقي غاصت رؤوس السلاطين/و الشعراء النبيين من قبل/ما أشبه الكبرياء الوضيعة بالطحلب المتحجر/في صخرة الغاب/ما أبعد النوم عن أعين شهدت/كيف يساقط الراقصون على ذهب العصر» (الفيتوري١٩٩٤:١٣١)

و قد تحدث الهادي آدم عن الشعراء المتقلبين تقلب الدهر و الذين يجرون وراء الحكام و قال إنهم إنما يجرون وراء سراب و أنه مادام به عرق ينبض لن يذلّ نفسه أمام المستبدين:

«و جـــري وراء ركـــابهم نفـــر يتقلبـــون تقلـــب الـــدهر

و يظـــل يهفـــو مـــن يلاحقهـــم نحـــو السـراب يــرف مــن القفــر

إنـــي لأحجـــم عـــن مشـــاربهم كـــي لا يطـــوق جيـــدهم شـــعري

عهـــد لعمـــرك لـــن أذل لهـــم أبـــداً و في عرقـــي دم يجـــري»

(آدم،١٩٩٢:١١)

و قد شكا الشاعر عبدالقادر الكتيابي أيضاً، من هذه الثلة المتقلبة التي تهلل لكل حاكم يأتي و تصدح له بالأناشيد:

«إنما نحن أساري/كلما حلّ انقلابيون/من قيد انقلابيين أيدينا/صدحنا بالأناشيد/سواء لفريق/أو عقيد أو مشير أو إمام » (الكتيابي،٢٠٠٦:٢٢٨)

و من المعروف أن السودان من البلدان التي تكثر فيها الانقلابات العسكرية، و كلما يحدث انقلاب يستبشر الشعب فيه خيراً و يأمل بالخلاص من القيود التي كان يفرضها النظام السابق و لكنه لم يمض وقت طويل حتي يري القيد ذات القيد يحكمه و أنه عاد أسيراً مثلما كان من قبل:

«فجأة من حيث لا ندري/و جدنا القيد/ذات القيد يحكمنا/و عدنا مثلما كنا أساري» (نفس المصدر)

ثم يرسم الشاعر الهادي آدم عاقبة من يجري وراء الحكام المستبدين فيقول بلغة ساخرة:

«سيقال حين أموت مات و قد أرضي(الرئيس) و جاد بالعمر
و يقال كان (ملف) خدمته مثلاً لبذل الروح و الصبر
و سيسألون الله يسكنني عدناً و حسبي ذلك من أجر
و يردّد المذياع أغنية فيسيل سمار من السكر»
(آدم،١٩٩٢:١٢)

فالشاعر في هذه الأبيات يذكر جلّ ما يمكن أن يناله شاعر السلطان بعد موته و هو إطراء له على ما قدّمه من خدمة و دعاء له بأن يسكنه الله الجنة، و لعلّ أكبر أجر يناله هو أغنية يرددها المذياع تُشيد بخدماته. و يقول الشاعر إن كرامة الإنسان أغلي من ذلك بكثير، فهي ليست سلعةً لتباع و تشتري ، و أنه ليس من أولئك الذين تستميلهم تلك المغريات:

«ليس الكرامة سلعة أبداً فيبيعها المحتاج للمشتري
ما كرمهم كرمي إذا عصروا كلا و ليست خمرهم خمري»
(المصدر السابق)

و يختم الشاعر قوله بأنه خالد بشعره الذي يسخر به من الطغاة و أن سخريته هي التي تميتهم و أنه يبعث الأمل في نفوس أمة سوف ترفع راية النصر آجلاً أم عاجلاً:

« أنا لن أموت و كيف يقتلني من لو أشاء أماته سخري
أنا من صنائع أمتي أمل يوماً سيرفع راية النصر»
(نفس المصدر)

٣- الثورة بوجه الاستبداد

في عام ١٩٨٩ اندلعت ثورة شعبية في رومانيا و أيدّها الجيش، و أدّت هذه الثورة الى الإطاحة بالديكتاتور الروماني نيكولاي تشاوتشيسكو(١٩١٨-١٩٨٩) الذي حكم

البلاد بقبضة من حديد و اتّسم حكمه بالشدة و الدموية.(جريدة شرق العدد:١٩٨٤) وقد أشار الشاعر السوداني محمد الفيتوري الى هذه الواقعة فقال:

«كان حريق الإله الذي/مات في بوخارست عظيماً/ و كان الرماد عظيماً/و سال دم بارد في التراب» (الفيتوري،١٩٩٢:٢١) ، فالشاعر قد تفاجأ بسقوط الديكتاتور الروماني و تمّني لو أن الطغاة في العالم العربي أيضاً تشهد نفس المصير، و لكنّه تذكر أن الطغاة في العالم العربي يتميزون بميزات مختلفة، فقال بلسان ساخر إن الطواغيت في البلاد العربية لا تزول و لا تشيخ و لا تعرف الاستقالة:

«و لكن ثمة في بوخارست بلادي أنا /لاتزول الطواغيت/أقنعة تشرك بالله في خلقه/فهي ليست تشيخ/ و ليست تموت» (المصدر السابق)

و يري الشاعر أن هؤلاء الطواغيت قائمون لسببين اثنين، الأول: القضية و يقصد بها القضية الفلسطينية، التي يتخذونها ذريعة للمارسة إجراءاتهم القمعية، و الثاني: أصحاب المنابر من علماء الدين الذين يسوغون للظالم ممارساته و يدعمونه في قراراته من خلال إعطلاءها وجهة دينية و شرعية:

«و قائمة هي باسم القضية/و أنظمة الخطب المنبرية/ و حاملة هي سرّ الرسالة/ وشمس العدالة/ و لاتعرف الحق / أو تعرف العدل/ أو تعرف الاستقالة□ (نفس المصدر)

فهذه الأنظمة التي لا تزول و لا تعرف الاستقالة لا يمكن التخلص منها إلا عبر ثورة شعبية عارمة تطيح بعروشها التي تأسست على الظلم و الفساد، و لذلك عمد الشعراء السودانيون الى تقديم نماذج من الثورات الناجحة في العالم ليستنير بها الإنسان العربي و يحذو حذوها في نضاله من أجل التحرر من ربقة الظلم و الاستبداد، و هذه النماذج الثورية التي أكد عليها الشعراء السودانيون في أشعارهم هي:

١-٣: الثورة على نهج الأنبياء(عليهم السلام)

فقد ذكر الشاعر السوداني عبدالقادر الكتيابي، ما قام به النبي ابراهيم (عليه السلام) من تحطيم للأصنام و اعتبره نموذجاً للثورة التي ينبغي على الأمة الإسلامية القيام بها فقال:

«فقد ورثت شفرة اللسان/ و السيوف و استهجت/ فأس إبراهيم في جماجم» (الىغوث و المناة و الهبل)» (الكتيابي:٢٠٠٦:٢٠٧)

إن تقديم النموذج الإبراهيمي في تحطيم الأصنام يعث بالرسائل التالىة:

أولاً: إن الظلمة و المستبدين بمثابة أصنام هذه الأمة ، و عليه ينبغي تحطيم هذه الأصنام بمختلف أشكالها و مسمياتها ، و بدون تحطيم هذه الأصنام لا يمكن البدء بمرحلة جديدة.

ثانياً: إن محاربة الطغاة تعد عملية مقدسة كما هو الحال في تحطيم الأصنام ، لأن هذه الأصنام قد تم إحلالها محل الخالق و جعلها تحيي و تميت، بينما هي« لا تسمن و لا تغني من جوع.»[٥]

ثالثاً: إن ابراهيم (عليه السلام) قد قام بثورته منفرداً، و لم يعاضده فيها أحد، إلا أنه بشخصيته العظيمة و بشهادة القران الكريم « كان أمةً»٢ و لذلك يريد الشاعر من خلال التأكيد على شخصية ابراهيم(عليه السلام) و دورها في محاربة الأصنام أن يذكر المسلمين بضرورة القيام بواجبهم الديني و الإنساني في محاربة الظلم حتي و إن لم يعاضدهم أحد في ذلك ، كما فعل ابراهيم (عليه السلام).

ثم يتطرق الشاعر الى شخصية النبي محمد(صلى الله عليه وآله) و يتأسي به في رصد المنافقين من أئمة الدجل فيقول:

«لأنني فهمت لا إله إلا الله/عن محمد عليه أفضل الصلاة و السلام/لن أكفّ عن رصد المنافقين من أئمة الدجل/علي فضح زيفهم» (المصدر السابق)

فالنبي محمد(صلى الله عليه وآله) أيضاً بدأ رسالته وحيداً و تحمّل الكثير من المشاق و الصعوبات في سبيل إحياء الأمة التي أماتها الظلم و الجهل و جاء بشعار «لا إله إلا الله»فهذا الشعار الثوري يمثل رسالة الأنبياء في تحطيم كل من يستبد بخلق الله ، و بما أن الشاعر قد فهم مغزي هذه العبارة و أدرك كنهها و استنار بهدي النبي الكريم، أقسم على نفسه أن لا يهادن المستبدين من أئمة الدجل و أن ينحو نحو محمد (صلى الله عليه وآله) في مقارعة الظلمة الذين يحاولون هم أيضاً ، استغلال الدين كذريعة لسدّ الأفواه و يصنعون من الدين مشانق يعلقون عليها المُطالبين بالحرية و العدالة: «سدوا

حلقي/جدلوا قيدي من أوردتي و شراييني/نصبوا من ديني مشنقتي» (الكتيابي٢٠٠٦:٢١٢)

٢-٣: ثورة الإمام الخميني(ره)

لا شك أن الثورة الإسلامية في إيران كانت منعطفاً تاريخياً مهماً و قد تركت أثرها و لا زالت، ليس على المنطقة فحسب بل على العالم بأسره، و أثبتت للعالم أن الشعوب المستضعفة إذا ما اتحدت و اعتمدت على قدراتها الذاتية و إذا ما كان لها قائد لا تأخذه في الله لومة لائم، فلا أحد يستطيع الوقوف بوجهها، و أنها سوف تشقّ طريقها نحو الحرية و الانعتاق من ربقة الاستعمار و الاستبداد.

و بما أن الثورات تعرف باسم قادتها و مُفجّريها، فإن الثورة الإسلامية في إيران قد عُرفت بثورة الخميني(ره) لما لهذا الرجل من أثر كبير في انطلاق الثورة و استمرارها و نجاحها و تصدير منهجها الى العالم. و من الشعوب التي تأثرت بهذه الثورة هو الشعب السوداني المسلم الذي منحته هذه الثورة مزيداً من الثقة بالنفس و الثقة بالمنهج الإسلامي كمنهج قادر على إدارة الحكم بكفاءة و اقتدار، و قد انعكس هذا التأثر على الشعر السوداني الحديث، و من الأمثلة على ذلك ما كتبه الشاعر السوداني محمد الفيتوري حول الثورة الإسلامية التي خصص لها قصيدة تحت عنوان« الرجل المتحدر تحت الصنوبر» و من خلال عنوان هذه القصيدة يتضح مدي الإجلال و الإكبار الذي يكنّه الشاعر لمفجّر هذه الثورة، فعند دراسة هذا العنوان يتبين لنا ما يلي:

المتحدر:من هبط من أعلي الى أسفل، و تحدّر الرجل من أسرة عريقة: تفرّع منها و انتسب اليها (ابن منظور،١٩٨٨، ج٣:٨٣)، و الملاحظ هنا أن استخدام لفظ «المتحدّر» يرمز الى سمو وشموخ هذا الرجل الذي يبدو كملاك نزل من السماء الى الأرض لإصلاحها.كما أن شجرة الصنوبر و بما لها من صفات مميزة ، كطولها الشامخ الذي قد يصل الى ٤٠ متراً، و عمرها المديد الذي قد يمتدّ الى ٢٥٠ عاماً، و تاجها الكروي الذي يشبه المظلة، فقد استغلها الشاعر ليقول من خلالها إن هذا الرجل الشامخ أخذت ثورته كشجرة الصنوبر تمتدّ الى الأطراف و تعمّر خلافاً لكثير

من الثورات، الى فترة زمنية طويلة، لاعتمادها على قدرات الشعوب و طاقاتها، و لأنها أصيلة و متجذرة في قلوب الجماهير و ضمائرهم.

و يتابع الشاعرالسوداني قوله إن آية الله لم يكن وحدة في هذه الثورة بل جمعَ مِن حوله كل مَن يتوق الى الحرية و الانعتاق، و قد عبّر عن الشباب الثائرين« بالنوارس التي تنقر أقفاصها الذهبية» حيث أن« النورس طائر يرمز في حياته و انطلاقته و طيرانه فوق البحيرة الى التوق الى الحرية، بل الى الحرية نفسها لكنه ينتهي دائماً ضحية رصاصة يطلقها صياد ليريه أن كل حرية لا تساوي أكثر من ثمن رصاصة حقيرة»(موقع الحياة) وما تلك الأقفاص الذهبية التي أخذت النوارس تنقر فيها بغية تحطيمها إلا تلك الحياة الأنيقة في ظاهرها، التي صنعها المستبد بغية إلهاء الشباب بزخارفها و صرفهم عن النظر الى ما تعانيه البلاد من ظلم و فساد، و قد أشار الشاعر الى أن الشباب الثائرين أخذوا يخرجون من هذه الحياة التي زينها لهم السلطان ليحبسهم فيها:

«لم يكن آية الله وحده/كانت نوارس طهران/تنقر أقفاصها الذهبية» (الفيتوري١٩٩٢:١٤٤)

و لكنّ هؤلاء الشباب و بفضل قيادة اية الله لهم ، أخذوا يحطمون أقفاصهم الذهبية لينطلقوا نحو الحرية و الانفتاح. ثم يتطرق الشاعر الى دور النسوة في هذه الثورة و ما كنّ يعانينه من فقر وحرمان في فترة النظام الملكي و كيف أنهن قد خلعن ثياب الحداد و بدأن مرحلة جديدة من حياتهن تتسم بالحرية و الكرامة:

«و النسوة اليابسات/اللواتي توسدن منذ عصور النبوة/أرصفة الفقر و الحزن/يخلعن عن روحهن ثياب الحداد» (المصدر السابق)

و يتحدث الشاعر عن الغضب الإلهي المتجسد في الأرض و الذي قد تحوّل الى جيش يقوده الخميني و يكنس من خلاله مملكة الشاه، ليس عن إيران فحسب بل عن الخليج الفارسي و المنطقة برمتها:

«و جيش قديم من الغضب المتجسد في الأرض/يحرق في ساحل الليل أكفانه/ و الخميني يكنس مملكة الشاه/عبر مياه الخليج[٦]» (الفيتوري١٩٩٢:١٤٥)

و يتابع الشاعر قوله:

«لم يكن وحده آية الشعب/كان يصوغ نهاراً لأحلامه/و يحرّك عصراً من العقم/بينما المدن الأثرية تهجع/تحت ركام التماثيل» (المصدرالسابق)

فقد وصف الشاعر، الإمام الخميني«بآية الشعب» ليدل« على ما يبدو» على أن القادة إنما هم من صنيع شعوبهم، وعندما تربي هذا القائد الفذ في أحضان هذا الشعب، فذلك يعدّ آيةً قدّمها الشعب لإثبات أصالته و عراقته و ليحرك العصر الذي اتسم لسنوات طوال، بالعقم ول م يخلف رجلاً عظيماً قادراً على القيام بانجاز كبير و تغيير جذري في المجتمع.و قد وصف الشاعر البلدان التي لم تع هذا التغيير و لم تعتبربه«بالمدن الأثرية التي تهجع تحت ركام التماثيل» و طالبها في المقطع التالى، بالاقتداء بآية الشعب الماثلة أمامها، أو أن تتوقع الحرائق و العواصف القادمة التي تطيح بالعروش، فالزمن العقيم قد ولّي و الزمن المتمرد قد وُلد في رحم هذا البطل العبقري:

«أيتها المدن الأثرية/ها هي ذي آية الشعب ماثلةً/فاحلمي بمجيء الحرائق/أو فاحلمي بجنون العواصف/يولد الزمن المتمرد في رحم البطل العبقري» (المصدر السابق)

فالرجل المتحدر تحت الصنوبر قد أدرك بنظرته الثاقبة أن الحديقة بحاجة الى رعاية و أن إهمالها سيؤدي لا محالة، الى نمو الطحالب بدل الزهور، وقد سمع هذا الرجل صوت عذاب الملائين، ذلك الصوت الذي لم يحجبه عنه لا صوت الأغاني التي يصدرها المستبدون ولا الضحكات التي يطلقها المرفهون:

«وهل سمع الرجل المتحدر/تحت غصون الصنوبر/صوت عذاب الملائين/محتجة في عويل الأغاني/ و حشرجة الضحكات» (الفيتوري،١٩٩٢:١٤٧)

إلا أن المستبد لم يكن يتصور أن البذرة التي زرعها الخميني(ره) منذ عقود قبل بزوغ الثورة، أخذت تنمو على التراب الذي جفّ في ظلّ حكم المستبد و قراراته الجائرة.فالشاه لم يكن يتصور أن هذه الجموع التي سيطر عليها بقهرة و استبداده و أخمد أصواتها، قادرة على النهوض ، و لم يكن يتصور أن نيران الغضب التي أطفأها بآلته القمعية و حوّلها الى رماد ، تتحول يوماً الى حريق يعصف بملكه، فقد تجاهل أن النار تظل تسكن الرماد:

«و هل كان شاه المدينة/يعلم أن حلوق العصافير/مسكونة بالرماد؟/و أن تراب البلاد التي ييست/في جفاف اسمه/كان يحمل في نبضه بذرة الاضطهاد» (نفس المصدر)

٣-٣: ثورة الشعب الغاضب

بعد تقديم النماذج الثورية، أكد الشعراء السودانيون على دور الشعب الغاضب في صنع الثورة و ضرورة القيام بها بالنسبة للمجتمع الذي يحتاج دائماً الى من يصحح له مساره الذي تتلاعب به الأنظمة الاستبدادية. فالثورة الشعبية ، من وجهة نظر الشاعر السوداني محمد الفيتوري، تشبه المطر الذري يلطّف الجو من الغبار و الكدر و يجدّد للأنهار مياهها و يزيد من هديرها و تدفقها:

«تغتسل الثورة في الثورة حيناً/مثلما تغتسل الأنهار في حدائق المطر/تستيقظ الخالدة العذراء/في رداءها الأحمر/بيضاء الجناحين/يعانق الحياة صوتها/و يشعل الجبال و البحار و الشجر» (الفيتوري١٩٩٢:٩٢)

و قد عشق الشاعر الثورة و أُولع بها و أخذ يركض في شوارع القهر الرمادية مجنوناً يغني بها و يطالبها بأن تجعل مجدها في الأرض و أن تسكن في هياكل الطين و في التوابيت، فالثورة قادرة على بعث الحياة في الجماد،فما بالك بالأحياء الذين أماتهم الجمود و الركون الى الظلم ، فالثورة تستفز طاقاتهم و تبعث في نفوسهم القوة و الشجاعة. و يطالب الشاعر الثورة أن تسكن أبواب بيوت الفقراء، لأن الفقراء هم العمود الفقري لكل ثورة تستهدف إقامة العدل و المساواة و الإطاحة بالظلم و الطغيان، لأنهم هم الذين يتحملون جور الطاغي و قمع المستبد، و عليهم تقع أعباء التخلص من هذا الوضع و تغييره الى وضع أفضل:

«بقدر ما ركضت في شوارع القهر الرمادية/مجنوناً أغني بك/لايسمعني إلا المجانين/و لا تعرفني إلا عيون الشهداء/اجعلي مجدك في أرضي/اسكني هياكل الطين/و أعشاب التوابيت/و أبواب بيوت الفقراء» (المصدر السابق)

ففي قصيدة«هذا الشعب» يؤكد الفيتوري على دور الشعب في مواجهة الظلم و الطغيان وما يعانيه جراء هيمنة الظالمين و استبدادهم، من جوع و فقر و حرمان:

«مشي على الشوك أزماناً و أزمانا/و عانق الأرض جوعاناً و عريانا/و خرّ تحت أنين الفدس مقبرة/و دبّ خلف زوايا الكوخ جرذانا/و ذاب بين سواقي الليل أغنية حزينة/و ذوي في الدوح أغصانا» (الفيتوري: موقع الشعر)

و يستمر الشاعر في سرد معاناة الشعب و ما يقدمه من تضحيات ما يتحمله من آلام حتي يكاد الإنسان يتخيل أن هذا الشعب قد فقد آدميته و أصبح ذليلاً خانعاً لكثرة ما تحمله من بطش الظالم:

«و عاش يسقي تراب الأرض من دمه/و يحصد الحقل أشواكاً و نيرانا/حتي إذا قيل ماتت أدميته/و هو الذي هوّن الدنيا و ما هانا/

و قيل لم تدع الآلام منه سوي/محنط يحمل الآلام أكفانا» (المصدر السابق)

إلا أنه رغم هذا التصور، يتحرك «المارد العملاق» في دمه ويهبّ كالطوفان يحطم الذين جعلوا أنفسهم أوثاناً تُعبد وي ُسبّح باسمها ، و قد استخدم الشاعر شخصية المارد الأسطورية «لأنها تمثل قوة خفية تسيطر من الداخل لتصوغ واقعاً مختلفاً تتبدي فيه زعامة المهزوم و كبرياء المغلوب»(الشعار٢٠٠٧:٢٥٥):

«تحرّك المارد العملاق في دمه/وشبّ يزحم شرياناً فشريانا/و حطّ من شرفات الموت صاعقةً/و هبّ عاصفةً و انساب طوفانا/و أبصرت مقلة التاريخ آلهة/مخلوعة و طواغيتاً و أو ثانا» (المصدر السابق)

و قد آمن الشاعر السوداني بقدرة الشعب، في كل الظروف و الأحوال، فالشعب حتي و إن كان يمرّ بظروف الجوع و الفقر، و التي من المفترض أن تفرض حالة من السكون و الضعف و الهوان على الإنسان، إلا أن الشعب إذا ما غضب، فإن غضبه سوف يتحول الى نيران تحرق الباغي:

«آمنت بالشعب جوعاناً و عريانا/آمنت بالشعب أسواناً و حيرانا/آمنت بالشعب.. بالشعب الذي اشتعلت/زهوره في يد الجلاد نيرانا/فهبّ ترقص رجلاه على جرف هار/و ترتجف الكفان خسرانا/لم يغنه أمسه الباغي و لا غده/ لمّا تفجر حقد الشعب بركاناً» (المصدر السابق)

و يستمر الشاعر مزهواً بقدرة الشعب على التغيير و على خلع تيجان الملوك و الإطاحة بالعروش التي تأسست على الظلم، فالشعوب لا تتحمل أن تهان كرامتها و إذا ما ديست كرامتها ، سوف تدوس عروش الطغاة و تنكس تيجانها، فإرادة الشعوب لا تعلوها إرادة:

«ناداه يا أيها المغرور قد وجبت/إرادة الشعب فاخلع تاجك الآنا/كفاك منا ضرعات و إذعانا/ و حسبنا منك تخريباً و طغيانا/فمن رآه وقد دفت سفينته/و الشمس تطلي جدار الغرب أقرانا/رأي جنازة طاغوت تشيعه/لعنات أمته شيباً و شبانا/رأي شعوبا إذا ديست كرامتها/داست عروشاً و أرباباً و تيجانا» (نفس المصدر) و الشاعر باعتباره معبراً عن الشعب و تطلعاته، سيظل قلبه موطناً لكل من تعثّر بقيد الظالم، و يظل يحارب بكلمته الثائرة، الظلم و الطغيان:

«سيظل قلبي للجميع تعثروا في كل قيد/سأحارب الطغيان يهدم صرح حاضرنا و يردي/سأحطم الظلم البغيض و كل عات مستبد» (آدم،١٩٩٢:٥٩)

٤- الحرية

لعلّ من أهم الأهداف التي تسعي الىها الثورات في العالم هي تحقيق الحرية. فالحرية لو وُجدت في مجتمع ما، تنمو في ظلها الكثير من المعاني السامية،ففي ظل الحرية تتحقق الديمقراطية و يقرّر الإنسان مصيره في الحياة و ينال المواطنون حقوقهم، و في ظل الحرية تنشط المنظمات المدنية المدافعة عن حقوق الإنسان و تنشط الأحزاب التي تنافس الحزب الحاكم فتحول دون فساده و تراقب أدائه و تصوّب أخطاءه، و في ظل الحرية تنشط الصحافة و ينشط الإعلام و تنشط الأفكار المتضاربة، التي تنتج أفكاراً و أطروحات جديدة، و في ظل الحرية يتنفس الشعب الصعداء. فالحرية لا تُقدّر بثمن، و لذلك راحت من أجلها نفوس أبية و دماء زكية.أما الشعراء السودانيون في العصر الحديث، فقد قدّسوا الحرية و افتدوها بمهجهم و أرواحهم و تغنّوا بها في أناشيدهم و أشعارهم، فهذا هو الشاعر السوداني الهادي آدم و الذي

يفتدي حريته بمهجته و دمه، يري أن نيل الحرية و المحافظة عليها لا يتأتي بالتضحية بالدم فحسب، إنما بتهيئة البيئة المناسبة لها و تحقيق الاكتفاء الذاتي و تعزيز الاستقلال عبر العمل المتواصل في مختلف القطاعات، فالحرية مثلما تتطلب السواعد القوية التي تدافع عنها فهي بحاجة الى فأس العامل و محراث الفلاح و بحاجة الى العلم و الى السلاح:

«أفديك يا حريتي بمهجتي و بالدم/بقبضة الفأس بصوت الجدول/بأنة المحراث بين السنبل/بالنار بالدخان/بالحديد/ بعزمة الأحرار بالبأس الشديد/بالصبر بالكفاح/بالعلم بالسلاح» (آدم،١٩٩٢:٧٢)

وقد اقتبس الشاعر، في هذه الأبيات، لفظة «الحديد» من الآية ٢٥ سورة الحديد﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ للتدليل على أن استخدام الحديد، باعتباره رمزاً للشدة و القوة،إنما هو أمر طبيعي ورد في القرآن الكريم و أمر به الله سبحانة و تعالى لإقامة العدل و لما فيه خير الناس ومنافعهم، عندما تفشل الحلول السلمية و لا يبقي سبيل غير استخدام القوة فعندها ينبغي على الإنسان أن يعيد الأمور الى موازينها من خلال استخدام القوة و السلاح.

أما الشاعر محمد الفيتوري و في قصيدة «من شرفة باريزية» التي كتبها أثناء زيارة له لمدينة باريس حيث أدهشه ما شاهده في تلك المدينة من سكينة و طمأنينة و ما يغمر أهلها من سعادة نتيجة لتنفسهم نسيم الحرية، فيتمني لو كان في البلاد العربية بعض الحرية التي شاهدها في بلاد الغرب.و لذلك انتقد البلاد العربية التي ما انفكت تلهج بكلمات الحرية و الديمقراطية و حقوق الإنسان، أما على أرض الواقع فلا يوجد شيء من ذلك :

«أنت الآن أعمق سكينة/و لكنك أشد اشتعالاً/أقلّ جنوناً و لكنك أكثر طمأنينة/ليت لنا نحن الذين نمضغ ليل نهار/في بلادنا كلمات الحرية و الديمقراطية و

حقـوق الإنسـان/ليت لنـا بعـض مـا لنـا هنـا/في وطـن الغربـة، بـاريس» (الفيتوري،١٩٩٤:٥٩)

و في مقطع آخر يجمع الفيتوري تحت مظلة الحرية كل المعاني السامية، فالحرية من وجهة نظره، هي ميراث الأرض و هي معجزة الشعب و وهج الطريق، و الحرية هي التي تخلد النضال و تثبت عبقرية الشعب الذي صاغها، و هي البداية و النهاية، فهي كل شيء، و في كلمة واحدة ، هي الدين الذي يدين به الإنسان و النهج الذي ينتهجه:

«إن حريتي، هي ميراث أرضي/و معجزتي/و توهج دربي/إن حريتي هي بدئي و خاتمتي/وهي ديني العظيم و ربي» (الفيتوري،١٩٩٢:٤٠)

و الشعب الذي ينهض من أجل تحقيق الحرية، لا يهاب القهر و لا الخوف و لا الموت، فالقهر لمن يزرع القهر و الخوف لمن ينسج الخوف، أما الموت ، في واقع الأمر، هو أن يبتلي الإنسان في حريته، فمن يرضي بذلّ العيش فهو الميت، و من يموت دفاعاً عن حريته فهو الحي:

«إنما يحصد القهر من/يزرع القهر في زمني/إنما يلبس الخوف/من ينسج الخوف في بدني/إنما الموت موت ابتلائي/أما أنا فسأبقي/أراقص حريتي/و أدافع بين هدير الملائين عن وطني» (المصدر السابق)

أما الظلم و الطغيان فمهما طال أمده فإنه لابدّ أن يزول و لا يبقي له ذكر، سوي ذكرياته المؤلمة و آثاره الكريهة، فمن كان قد نصّب من نفسه إلهاً بالأمس سوف يقال عنه« كان قد مرّ طاغية من هنا» أما الذكر الحسن فيبقي لمن صنعوا مجد الحرية و دافعوا عنها و حافظوا عليها :

«أمس قد مرّ طاغية من هنا/نافخاً بوقه تحت أقواسها/و انتهي حيث مرّ/كان سقف رصاص ثقيلاً/ تهالك فوق المدينة و الناس/كان الدمامة في الكون/و الجوع

في الأرض/ و القهر في الناس/أتي فوق دبابة/و تسلّق مجدا/و حاصر شعباً/و غاص في جسمه/ثم هام بعيداً» (الفيتوري ١٩٩٢:٣٢)

نتائج البحث :

تناولت الدراسة الظلم و الاستبداد في الشعر السوداني الحديث و قد خلصت الى النتائج التالية:

١- من الآثار المترتبة على الظلم و الفساد و التي أشار اليها الشعراء السودانيون في أشعارهم، هي الرقابة على الشعراء و المفكرين و أصحاب الرأي الآخر، و السجون و الإعدامات، و انعدام العدالة في المجتمع ، و إثارة الحروب و النزاعات.

٢- لقد انتقد الشعراء السودانيون، أولئك الذين يجرون وراء الحكام و يسوّقون لهم جرائمهم، من شعراء و علماء و غيرهم، و اعتبروهم مشاركين في الظلم و الاضطهاد.

٣- دعا الشعراء السودانيون الى القيام بوجه الظلم و الاستبداد و استعادة الحرية عبر التضحية و الفداء.

٤- تطرق الشعر السوداني الحديث الى تقديم نماذج من الثورات الناجحة في العالم و التي تستحق أن تكون قدوةً يقتدي بها الشعوب و الأمم ومن هذه النماذج، الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني(ره).

٥- و أشار الشعراء السودانيون الى الحرية باعتبارها الهدف الأسمي الذي يسعي الثوار من خلال كفاحهم للوصول اليه و الغاية التي ينشدها جميع الشعوب في العالم

Abstract

Sudan is one of the Arabian countries that has seen lots of historical events and injustice in the new era that have impressed on

literature including the poem. At that time which was with oppression and despotism that has been done by the rulers through the times, the Sudanese poets have revoked the Arab nations to uprise and create revolution against oppression, tyranny and retake their lost freedom by sacrificing and they have introduced some models in order to terminate such despotism. The most prominent models are: the method of the prophets of the God (Peace be upon them) and Emam Khomeini's revolution therefore they have asked them to learn and follow the lessons from Iranian Islamic revolution to put it into consideration in order to terminate oppression and tyranny.

Key words : Tyranny , oppression , freedom , Sudanese poembstract .

هوامش البحث

١- ولد في مدينة الهلالية في السودان تخرج في كلية دار العلوم بالجامعة المصرية وحصل علي درجة الليسانس في اللغة العربية وآدابها، وحصل علي دبلوم عال في التربية من جامعة عين شمس، ثم حصل علي الدكتوراه الفخرية من جامعة الزعيم الأزهري بالسودان وعمل معلما بوزارة التعليم بمدينة رفاعة. للشاعر آدم شعر وافر وله دواوين، اشهرها ديوان «كوخ الأشواق»، الذي يعده النقاد من أفضل ما قدم للأدب وللمكتبة السودانية، وكتب في مجالات الإبداع الأدبي الأخرى، واشهر ما كتب في هذا المضمار مسرحية باسم «سعاد». كتب عدة أشعار منها قصيدة غداً ألقاك التي غنتها المطربه أم كلثوم. فيما كتب العديد من القصائد آخرها قصيدة لم تنشر بعد بعنوان (لن يرحل النيل)يصور فيها بريشة الفنان ذكرياته العزيزة التي عاد يتفقدها في حي منيل الروضة الذي سكنه في صباه.ويعتبر النقاد في الخرطوم الراحل آدم، ٨٠ عاما، أنه ظل لعقود في مصاف الشعراء الكبار، ليس على مستوى السودان، وإنما على مستوى العالم العربي. ورغم أنتمائه لجيل سابق للحركة الشعرية المعاصرة، فإنه يعتبر من الشعراء المحدثين.(موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة)

٢- شاعر سوداني بارز. يعد من رواد الشعر الحر الحديث، ويلقب بشاعر إفريقيا والعروبة. وتم تدريس بعض أعماله ضمن مناهج آداب اللغة العربية في مصر في

ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، كما تغنى ببعض قصائده مغنّون كبار في السودان. يعتبر الفيتورى جزءاً من الحركة الأدبية العربية المعاصرة، ويعد من رواد الشعر الحر الحديث. تعد أفريقيا مسرحا أساسياً في نص الفيتوري الشعري، شكلت فيه محنة الإنسان الأفريقي وصراعه ضد الرّق و الإستعمار ونضاله التحرري و أهم الموضوعات التي تناولتها قصائده، وألف عدة دواوين في هذا المضمار منها ديوان «أغاني أفريقيا» الصادر في عام ١٩٥٥، و «عاشق من أفريقيا» وصدر في عام ١٩٦٤م ، و »اذكريني يا أفريقيا» ونشر في عام ١٩٦٥ ، وديوان «أحزان أفريقيا» والصادر في عام ١٩٦٦، حتى أصبح الفيتوري صوتَ أفريقيا وشاعرها.وللهّم العربي أيضاً مكانة في أعمال الفيتوري من خلال تناوله للقضايا العربية، خاصة القضية الفلسطينية. فقد تنقل الفيتوري بين العديد من بلدان الوطن العربي ومدنه من الإسكندرية وحتى الخرطوم ومن بيروت ودمشق حتى بني غازي وطرابلس، وكتب العديد من القصائد المهمة التي جعلته واحدا من كبار الشعراء العرب المعاصرين،كما كتب الفيتوري عن الحرية والإنعتاق ومناهضة القيود والإستبداد والإعتزاز بالوطن منذ بداياته الشعرية.(المصدر السابق)

٣- ولد في مدينة الهلالية في السودان تخرج في كلية دار العلوم بالجامعة المصرية وحصل علي درجة الليسانس في اللغة العربية وآدابها، وحصل علي دبلوم عال في التربية من جامعة عين شمس، ثم حصل علي الدكتوراه الفخرية من جامعة الزعيم الأزهري بالسودان وعمل معلما بوزارة التعليم بمدينة رفاعة. للشاعر آدم شعر وافر وله دواوين، اشهرها ديوان «كوخ الأشواق»، الذي يعده النقاد من أفضل ما قدم للأدب وللمكتبة السودانية، وكتب في مجالات الإبداع الأدبي الأخرى، واشهر ما كتب في هذا المضمار مسرحية باسم «سعاد». كتب عدة أشعار منها قصيدة غداً ألقاك التي غنتها المطربه أم كلثوم. فيما كتب العديد من القصائد آخرها قصيدة لم تنشر بعد بعنوان (لن يرحل النيل)يصور فيها بريشة الفنان ذكرياته العزيزة التي عاد يتفقدها في حي منيل الروضة الذي سكنه في صباه.ويعتبر النقاد في الخرطوم الراحل آدم، ٨٠ عاما، أنه ظل لعقود في مصاف الشعراء الكبار، ليس على مستوى السودان، وإنما على مستوى العالم العربي.

ورغم أنتمائه لجيل سابق للحركة الشعرية المعاصرة، فإنه يعتبر من الشعراء المحدثين.(موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة)

٤- نيرون: من أشهر الطغاة والدمويين عبر التاريخ وهو خامس وآخر إمبراطور في الإمبراطورية الرومانية. قتل أمه وقائد جيشه الأمين«بوروس» ثم قتل أصدقاءه وأقاربه وضباطه، وكان أشهر جرائمه علي الإطلاق، حريق رما سنة ٦٤ م (موقع أراجيك)

٥- الغاشية:إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين(النحل:١٢٠)

٦- المقصود بالخليج هنا هو الخليج الفارسي

قائمة المصادر والمراجع

وخير مانبتدىء به القرآن الكريم

- الفيتوري، محمد(١٩٩٢ م) ديون يأتي العاشقون إليك، مصر، دار الشروق
- الفيتوري، محمد(١٩٩٢ م) ديوان شرق الشمس غرب القمر، مصر، دار الشروق
- الفيتوري، محمد(١٩٩٤ م) ديوان قوس الليل قوس النهار، مصر، دار الشروق
- الهادي ، آدم(١٩٩٢ م) ديوان كوخ الأشواق، السودان، مكتبة الكاملابي
- الكتيابي عبدالقادر(٢٠٠٦ م) ديوان الكتيابي، السودان ، الطبعة الأولي
- الشعار ، سلطان عيسي،(٢٠٠٧ م) التراث في شعر محمد الفيتوري، جامعة مؤته، الأردن
- علي موسي، عروه، عبدالقادر الكتيابي شاعر تمقته الأنظمة السياسية، موقع الراكوبة
- رواق، خالصة (٢٠١٥ م) ،حوار المذهب والثورة في شعر تميم البرغوثي، جامعة بوضياف، الجزائر
- ابن منظور١٩٨٨(م)،لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت
- السرغيني، محمد(٢٠٠٨)، الزنوجة في شعر محمد الفيتوري، موقع نزوي
- حيدري، رسول(١٣٩٠ ه ق) اتجاهات الشعر العربي المعاصر، جامعة نجف آباد الحرة
- موقع الشعر www.alsh٣.com
- موقع أراجيك www. Arageek.com
- موقع الراكوبة www.alrakoba.net

- موقع قاموس المعاني www.almaany.com
- موقع الحياة www.alhayat.com